الخلاص بالفلسفة في عوالم الخراب والدمار

عندما نُقلع عن التعلُّق بآمال عريضة سنتجاوز الغضب واليأس والإحباط

يرى كثيرون أن الفلسفةَ علمٌ جَافٌ، يَهدف إلى التنظير وإعمال العقل. وأما أصحابها فهم غريبو الأطوَار، أو مجانين ثرثارين، فهم يمْلِكون قُدرة كبيرة على تأويل العالم غير أنهم عاجزون أبدا عن تغييره، وَقد أهيلت عليهم التهم الكثيرة مثل الهرطقة، والسفسطة وإفساد عقول الناشئة، وغيرها من التهم، لكن الفلسفة بعيدة عن هذه النظرة الضيّقة.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

الفلسفة حسب ليوتار ممارسة تهدف إلى تغيير وجه العالم مثلها مثل التحليل النفسي الذي يعتبره فرويد "طبًا سريريًا"، لكن هل نظر أحد إلى المسعى الحقيقي للفلاسفة، والذي جعلهم يتحمّلون كافة الاتهامات، بل وَيُقْدِمُون على تجرّع السُّموم؛ وهو ماثل في تخليص الناس من الشّقاء ودفعهم إلى السّعادة. على اعتبار أن مدرسة الفلسفة أشبه "بعيادة طبيب" على حدّ قول إبكتيتوس.

> الفلاسفة هم وحدهم مِن ينتشلونك من العذاب وهم القادرون على مواساتك والأخذ بيدك إلى جادة الطريق

كما أن الفلسفة هي مرشدنا إلى إعمال الفكر وإلى الفهم العميق للنفس الإنسانيّة على حدّ تعبير سعيد ناشيد. بل ثمة ارتباط شرطي بين الفلسفة والحياة. فلا يمكن تنمية القدرة على الحياة من دون تنمية القدرة على التفكير. كما أن تقليص دائرة الشقاء في حياة الإنسان رهين بتنمية مهارة التفكير.

عزاءات الفلسفة

في ظل عوالم الخراب والدمار التي تحيط بنا من كل جانب، عوالم محكومة بالاضطراب تارة ومحاصرة بالإرهاب تارة ثانية، أضحى الفرد مُستلبًا بوسائل متعدّدة، بل أحيانا يأتي الاستلاب بإرادة حرّة، بتسليم نفسه للتكنولوجيا الحديثة. في ظل هذه العوالم السريالية التي راحت تشكل ذواتنا وواقعنا، قد تكون الفلسفة هي الحل.

والأمر الذي يدعو إلى التساؤل: هل حقًا نحتاج إلى الفلسفة؟ وماذا تقول الفلسفة لهؤلاء الذين يعيشون الحياة في ظروف شديدة القسوة والضراوة؟ لنتفق أولا أن التفكير هو أداة تحرير الإنسان من الانفعالات السلبية والغرائز البدائية (الغضب، الخوف، والكراهية) كما يقول نيتشه الذي وصف التفكير بأنه "إعمال المطرقة".

هكذا عادت الفلسفة وأسئلتها، وكأنها كما قال آلان دو بوتون "أشبه بعزاءات لنا". فليس دور الفلسفة كما يقول سعيد ناشيد "أن تمنحنا القدرة على قراءة النصوص وحسب"، بل دورها بالأساس في "أن تجعلنا قادرين على الحياة" وهو الدور الذي نحتاجه اليوم في عصر إنسان ما بعد الأديان. ربما تأكيدا لما قاله هيغل من قبل "عندما تتلاشى القوة الموحّدة لحياة البشر وتفقد التناقضات علاقاتها وتفاعلاتها الحيّة وتحصُل على استقلالها الذاتي تنشأ إذن الحاجة إلى الفلسفة"، أي بحثا عن وحدة المعنى، الفلسفة تبدأ من حيث يفنى شيء ما، وهذا الشيء هو القدرة على التوحيد.

قد يبدو تساؤل جان فرانسوا ليوتار: لماذا نتفلسف؟ قد وجد جوابه في كتابات متعدِّدة سواء أجنبية أم عربية. فيأتي جواب آلان دو بوتون المولود في زيوريخ عام 1969، في كتاب بعنوان "عزاءات الفلسفة: كيف تساعدنا الفلسفة في الحياة" ترجمة (يزن الحاج)، حيث يقدّم لنا فيه أشبه بخلطة سرّية للسعادة في الحياة، ولكن بمواصفات الفلاسفة.

فالفلاسفة هم وحدهم مَن ينتشلونك من العذاب وهم القادرون على مواساتك والأخذ بيدك إلى جادة الطريق، لأن الفلسفة تعني في الأساس حُبّ الحكمة والتدرُّب عليها. ضاربًا المثل بسقراط الذي كان بمثابة نموذج إيجابي في كسر نمطية الأفكار السائدة، وكيفية التمرد عليها حتى ولو كان المصير الموت. فقد أشاع سقراط بين عموم الناس، عدم اليقين للأفكار السائدة، وكأنّ وظيفة الفيلسوف هي التحريض على عدم الاقتناع، بأن الآخرين على خطأ وفقط بل يدفع الناس إلى التفكير.

كما يستعرض للفلسفة الأبيقورية، التي قوامها فكرة جوهرية مفادها: ما الذي يجعلني سعيدا؟ وهو أشبه بسؤال: ما الذي يجعلني بصحة جيّدة؟ ومثلما نلجأ إلى الطبيب لمعالجة عللنا الجسدية، علينا اللجوء إلى الفيلسوف لمعالجة أرواحنا العليلة. فالسعادة عنده معتمدة على بعض الأمور السيكولوجية المعقدة، لكنها مستقلة نسبيا عن الأمور المادية، باستثناء الأولويات المعيشيّة. وعن علاقة السعادة بالأصدقاء، فيقول "إننا لن نكون سعداء دون أصدقاء".

فواجب الفلسفة كما يقول أبيقور هو مساعدتنا على تأويل نوبات اليأس والرغبة الغامضة التي تعترينا. وينفي الكاتب أن يكون ما راج عن أبيقور من أنه كان يُولي اهتماما بالمتع والشبق الجنسي، فهذا ليس من الحقيقة في شيء. فخلاصة فلسفته هو الزهد في متع الحياة، حتى أنه كان يوصي بأن ينشغل تفكير المرء قبل النوم في من يختار لكي يتناول طعامه وشرابه معه.

كما يقدّم الكاتب آلان دو بوتون تنويعات مختلفة للأشياء التي تدفع اليأس والإحباط والتشاؤم عنا، عندها نلجأ إلى سينيكا، الذي واجه أزمات وإحباطات متعدّدة، سواء على المستوى العام أو على المستوى الشخصي. إلّا أنّه استطاع التغلُّب على هذا، فما تعلّمه من الفلسفة جعله يواجه الموت بثبات، فعلى حد قوله "أدين بحياتي للفلسفة، وهذا أقل التزاماتي حيالها".

بناء الحضارة

إذا كان لويتار يجيب عن سؤال لماذا نتفلسف؟ بقوله لأننا نرغب؟ فإن سعيد ناشيد في كتابه "التداوي بالفلسفة" يرفع سقف أمانيه من الفلسفة، لا فقط باعتبارها هي التداوي، وإنما باعتبارها هي التي تصوغ له قواعد حياة تستحق أن تُعاش بصرف النظر عن المكانة والمكان والإمكان. فصوغ هذه القواعد وتنظيمها هو المهمة الأصلية للفلسفة منذ لحظة سقراط، إلى ما بعد نيتشه. ومن ثمّ يشدّد بقوله "إذا لم تؤازرك الفلسفة في مواجهة أشدّ ظروف الحياة قسوة وضراوة فهذا يعني أن دراستك للفلسفة مضيعة للوقت".

وما بين رجاءات وأمنيات بأن يحيا بالفلسفة حياة بسيطة، وهي التي صار طريقها صعبا بعد أن ضيّعنا الطريق إليها في غمرة الأوهام الكبرى. ويتساءل هل للتفكير الفلسفي دورٌ في بناء الحضارة المعاصرة؟ وفي سبيل تأكيد هذا التساؤل وتحويله إلى مُسلّمة، يأخذنا في تساؤلات متفرعة يؤكّد من خلالها أهمية الفلسفة، فيتساءل: لولا هذه النصوص الكبرى كيف سيكون تفكيرنا الآن، وكيف ستكون علاقتنا بالدين والحلم والأسطورة والخيال والحبّ والجمال؟ وكيف ستكون قدرتنا على التفكير والنقد والتأمّل والتفكيك؟

وإذا كانت هناك شعوب لحقت بركب الحضارة، دون الحاجة إلى التفكير الفلسفي (كالصين والهند وجنوب أفريقيا.. إلخ)، فمع تعلّم هذه الشعوب الصناعة والإدارة، إلا أنها ستظل عاجزة عن إبداع أنساق علمية جديدة تتجاوز بها أينشتاين وماكس بلانك.

شمس الفلسفة تنقذ الأفراد من اليأس (لوحة للفنان بسيم الريس)

فالإبداع النظري التصوّري يحتاج إلى علم الكليات كما هو عند أرسطو. وبذلك تكون الفلسفة هي السلّم الذي ارتقته الحضارة المعاصرة صعودا متدرجا نحو تحسين قدرة الإنسان المعاصر على التفكير في مواجهة الأوهام، وتحسين قدرته على العيش في مواجهة الشقاء وقدرته على التعايش في مواجهة عنف الإنسان ضدّ أخيه الإنسان.

ولذا يكون الدفاع عن الفلسفة ليس مجرد دفاع عنها في حدّ ذاتها، وإنما هو دفاع على صيرورة تطوُّر العقل الإنساني نحو تحسين القدرة على التفكير في عالم تطورت فيه تقنية الاستلاب، وتحسين القدرة على العيش في عالم محكوم بالاضطراب، وتحسين القدرة على التعايش في عالم يحاصره الإرهاب.

يرى سعيد ناشيد أن من يظن أن التفكير يحتاج إلى العمق، هذا وَهمٌ وليس حقيقة. ومن ثم ينصحهم بألا ينقادوا وراء فكرة البحث عن العمق، فيفقدوا إحساسهم بالحياة، وتلمُّس متعها وملذاتها "جريا وراء العميق، فهذا سيؤول بهم إلى أنْ يفقدوا الحياة نفسها".

وفي الوقت نفسه يهوّن من الإفراط في الأمل، لأنه كلما كَبُر حجم الأمل كَبُرَ حجم اليأس. وقد يكبر إلى درجة تدمير كل شيء.

اللجوء إلى الفلسفة كحل لمعالجة أزماتنا هل هو مصادفة، أم تصاريف قدرية؟ ففي الوقت الذي تزداد أزماتنا يدعونا بعض الكتاب؛ لأن نحيا بالفلسفة! أو أن نتداوى بالفلسفة، أو يُوصى بأن نجد عزاءاتنا في الفلسفة، وقد أوعز هذا لأن يصيح أحدهم وكأنه وجد الحل، فيعلن لقد أصبحت "الفلسفة فنًا للعيش" أو هي "أسلوب حياة" تواجه به المشكلات والعقبات. ربما أثبتت التجربة أن الحلول الأخرى غير مُجدية دون التفكير الذي هو أداة الفلسفة. فالحياة تحتاج إلى تأمّل لمواجهتها كما قال شوبنهاور.

الطباعة حرام، الطباعة حلال!

حسن الوزاني
كاتب مغربي

قبل أن يصير الكتاب والصحيفة اليومية والمجلةَ وغيرها من الوثائق المطبوعة جزءا من تفاصيل حياتنا اليومية، كان عليها أن تمرّ أولا عبر أعين الفتاوى التي ظلت تشهرها خلال قرون طويلة، البنية المحافظة ضد كل جديد تَشعر أنه قد يخلخل نظامها أو يمسّ به.

ولم يكن صدور الفتاوى الخاصة بتحريم الطباعة أمرا محصورا على بلد ما، بل إنه يبدو مشتركا بين العديد من الدول الإسلامية، التي اعتادت أن تخرجَ من بين صفوف علمائها أصوات قوية تحرّم كل ما يُشم فيه رائحة الروم.

ولعل الدولة العثمانية تشكل النموذج الأكبر في هذا الإطار، خصوصا أنه كان يفترض فيها، بحكم موقعها الديني والسياسي خلال اللحظة التاريخية، أن تشكل الممر الأساس بين الثقافات الأوروبية والعربية والإسلامية. غير أنها، ولأكثر من سبب، اختارت أن تكون الحاجز المنيع أمام دخول الطباعة.

في أواخر القرن السادس عشر، سيصدر السلطان العثماني مولاي بايزيد الثاني قرارا يقضي بتحريم الطباعة على رعاياه المسلمين. غير أنه سيخول، بشكل مفارق لذلك، للأقليات حق إنشاء مطابعها داخل الدولة العثمانية شريطة عدم استعمال الحروف العربية، حيث صارت لليهود والعرب المسيحيين مطابعهم الخاصة. ولن يكون هذا القرار هو الأخير، بل سيليه آخر بعد حوالي عشر سنوات، وهو يعود إلى السلطان مراد الثالث، الذي ظل وفيًا لروح المنع، حيث سيسمح للأوروبيين بتوزيع سلعهم داخل الإمبراطورية العثمانية، مع حصر ذلك على الكتب العلمية واستثناء غيرها، ومنها بشكل خاص الكتب الدينية.

وبذلك، في اللحظة التي ستعيش الطباعة العربية لحظات طويلة من الغياب نتيجة المنع، ستنتعش الكتب المؤلفة باللغات العبرية والأرمنية واللاتينية داخل الإمبراطورية الكبيرة، حيث برزت، على سبيل المثال، كما يشير إلى ذلك الباحث زينو سولودوس في "الموسوعة العبرية"، مجموعة من الأسر اليهودية التي امتهنت الطباعة لفائدة يهود مدينة إسطنبول. ولعل من أهمها أسرة آل جيرسون، التي جاوز عدد مطبوعاتها الثلاثمئة عنوان، والتي تبقى من أهمها طبعتها الخاصة بالتوراة، مع تفسيره. أما دواعي قراري السلطانين العثمانيين بايزيد الثاني ومراد الثالث فتعود إلى أكثر من سبب. ولا ترتبط فقط بهيمنة التوجه الديني المحافظ خلال هذه المرحلة، الذي يمكنه أن يبرّر الأمر بقدسية اللغة العربية.

في كتابه الهام "مملكة الكتاب"، يحرص الباحث العراقي فوزي عبدالرزاق على البحث عن الأسباب الأخرى التي قد تكون وراء القرارين. إذ يعود إلى خصوصيات الطريقة التي استعمل بها الأوروبيون الطباعة منذ اختراعها في علاقتهم مع بلدان العالم الإسلامي، وخاصة مع الأتراك العثمانيين. وهي الطريقة التي قد تكون وراء نفور العثمانيين من الطباعة. وهو ما يفسّره مؤشران على الأقل.

يتجلّى المؤشر الأولى في كون حركة الإصلاح الديني في أوروبا كانت هي أولى الحركات الدينية التي حظيت بالدعم على مستوى الطباعة في إطار مواجهة الأتراك، حيث تم اعتبار الطباعة من طرف رجال الكنيسة "هبة من السماء ودليلا على تفوق الغرب على قوى الكفر"، كما تؤكد ذلك الباحثة إليزابيث آيزنشتاين في كتابها "الطباعة عامل التغيير".

أما الثاني، والذي يشير إليه فوزي عبدالرزاق، فيكمن في إسهام الطابعين الأوروبيين في تحفظ العثمانيين عن الطباعة. أما تأسيس أول مطبعة عربية بإسطنبول فسيتم بعد عقود عند صدور قرار تحريمها. وكان وراءها المجري إبراهيم متفرقة، الذي استطاع استصدار فتوى من شيخ الإسلام، الذي اشترط عدم نشر الكتب الدينية، وأيضا أمرا جديدا من السلطان أحمد الثالث بجواز طباعة الكتب. وكان إبراهيم متفرقة قد أصدر رسالته الشهيرة "وسيلة الطباعة"، التي كرّسها لتبيان أهمية المطبعة على مستوى التغيير والإصلاح.

والأكيد أن تحريم الطباعة لم يكن وصفة محصورة على العثمانيين. إذ أن علماء الأزهر لم يكونوا بمنأى عن الموضوع، حيث أصدر بعضهم فتوى بتحريم طباعة الكتب الشرعية، بدعوى كونها تحرّف العلوم، أو بحكم كون "مواد الطباعة منافية للطهارة، أو بدعوى عدم جواز ضغط آيات الله بالآلات الحديدية، واحتمال وقوع خطأ في طبع القرآن" .

وبذلك، لم تكن بدايات الطباعة العربية بالمشرق العربي ولا بمغربه، وإنما بالضبط بأوروبا، حيث تعود المحاولات الأولى التي عملت على استعمال الحرف العربي إلى القرن الخامس عشر، مع صدور كتاب "الحج إلى قبر المسيح" لبرنارد دي برينباخ.

وسيفتح انتشارُ المطابع العربية بالعديد من مدن أوروبا، ومنها باريس وروما وليدن ولندن وأوكسفورد، البابَ، سواء أمام طبع العديد من الكتب باللغة العربية، ومن ذلك الإنجيل و"القانون الثاني" لابن سينا و"نزهة المشتاق" للإدريسي، أو أمام إنشاء مطابع عربية من طرف العرب المسيحيين، خصوصا بالشام، ومن ذلك مطبعة قوزحية بلبنان، التي تُعتبر الأولى من نوعها.

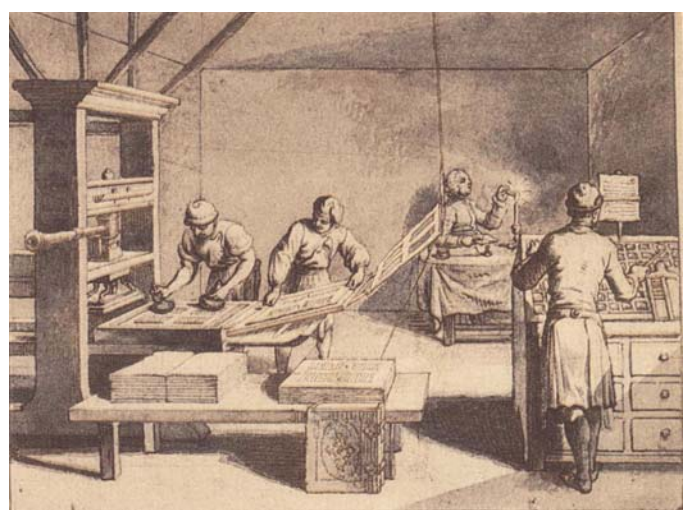

الطباعة عند العرب تعرضت لعراقيل كثيرة

> تأسيس أول مطبعة عربية بإسطنبول كان بعد عقود عن صدور قرار تحريمها من خلال فتاوى بعض الشيوخ

في كتابه الهام "بداية الطباعة العربية في إستانبول وبلاد الشام"، يعود الباحث التونسي وحيد قدورة إلى إشارات هامة عن وجود تقنيات مبكرة للطباعة بالعالم الإسلامي، اعتمادا على دراسة مبكرة للباحث النمساوي جوزيف هامير-بوركستال. حيث يقف الباحث عند حديث ابن الأبار في كتابه "الحلة السيراء" عن أحد كُتاب الأمير عبدالله الذي كان يخط الوثائق الرسمية في بيته، ثم يرسلها إلى من يطبعها.

ولعل هذا المعطى يحتاج كثيرا من البحث لأنه في حالة إثبات حقيقته، يمكن أن يقلب تاريخ الطباعة، ليس فقط على مستوى العالم الإسلامي ولكن أيضا على مستوى الكون.